

الأستاذ: قوراري السعيد.

اسم المادة: النص الأدبي القديم(نثر).

الفئة المستهدفة: سنة الأولى جذع مشترك أدب عربي LMD

المحاضرة 13: أدب التصوف في المشرق والأندلس والمغرب

أهداف الدرس: أن يتعرف الطالب على

مراحل الدرس:

تمهيد.

التصوف في اللغة.

التصوف في الاصطلاح.

تعريف التصوف لدى المتصوفة أنفسهم.

تعريف التصوف لدى غير المتصوفة من المسلمين.

التصوف في الأندلس والمشرق والمغرب.

ملخص المحاضرة:

التصوف الإسلامي جزء أساسي في التراث الإسلامي حيث تبوأ مكاناً هاماً في الفكر العربي الإسلامي،

والاهتمام بالتصوف قديم، تناولوه المؤرخون والعلماء العرب

والمسلمون كالطوسي، والكلاباذي، والقشيري وغيرهم، كما ألف فيه الفلاسفة كابن سينا والغزالي وابن

خلدون، وتجادل فيه الفقهاء وعلماء الكلام إضافة إلى جهود المستشرقين. ولم يتفق هؤلاء على رأي واحد

سواء تعلق الأمر بحدوده أو أصوله فاختلعت الآراء والمشارب حوله. فالتصوف ليس ظاهرة إسلامية

خاصة بل إن جذوره وعروقه تمتد في أي فكر ديني عموماً، حتى إن كثيراً من الدارسين ربطه بأصول

غير إسلامية كالمسيحية والهندية والفارسية والفلسفة اليونانية. بينما يرفض رأي آخر هذه الصلات جملة

وتفصيلاً ويرده إلى أصوله الإسلامية ومنابعه الأولى القرآن والسنة.

المحاضرة 13: أدب التصوف في المشرق والأندلس والمغرب.

يمثل التصوف بشكل عام نزعة إنسانية ظهرت في كل الثقافات بصورة متفاوتة، وهي في جوهرها تعبير عن إشباع الجانب الروحي، والزهد في متع الحياة الفانية، والركون والدعة إلى قوة أعلى، ورغبة في التعالي عن الشهوات المادية، بغية الارتقاء في سلم الصفاء الروحي والوصول إلى السعادة . والمسلمون ليسوا بدعا في نزوع طوائف منهم إلى التحلي بهذه الصفة ونبذ المتع والزهد في الشهوات، والسعي نحو الرقي الروحي ، غير أن لكل مجتمع خصائصه التي تميزه من منطلق عقيدته التي يؤمن بها؛ لذلك نجد التصوف في المجتمع الإسلامي في منطلقاته وقيمه يستند إلى تعاليم الدين، فهو امتداد لطريقة الزهد عند الرسول(صلى الله عليه وسلم) وعند الصحابة والتابعين رضوان الله عنهم جميعا، وظهور التصوف كان حالة طبيعية لمجتمع تكون ثقافته إسلامية متكاملة، فهو قائم على النزعة الروحية المستمدة من الزهد على أساس الدين.

التصوف في اللغة: قال الجوهري في (الصاح): « الصوف للشاة والصوفة أخص منه وصوفة أي حيٌّ من مضر وهو الغوث بن مريم بن أدين بن طابخة بن إلياس ابن مضر، كانوا يخدمون الكعبة في الجاهلية ويجيزون الحاج أي يغيضون بهم »
وقول الشاعر: حتى يقال أجزوا آل صوفانا .
وكبش صاف أي كثير الصوف .

وصاف السهم عن الهدف يصوف ويصيف عدل عنه. ومنه قولهم صاف عني شر فلان وأصاف الله عني شره.

ومن خلال هذه التعريفات اللغوية المتقدمة يتضح لنا أن كلمة صوف تأتي بمعنى الصوف المعروف للشاة ونحوها.

كما تأتي بمعنى مال وعدل.

ويرى أحمد بن فارس أن الباب كله يرجع إلى الصوف المعروف وفي ذلك يقول: (الصاد والواو والفاء أصل واحد صحيح وهو الصوف المعروف.

يقال كبش أصوف وصوف وصائف وصاف كل هذا يكون في كثير الصوف.

ويقولون خذ بصوفة قفاه إذا أخذ بالشعر السائل في نقرته .

وذهب أحمد بن علي المقري في (المصباح المنير) إلى أن كلمة صوفية كلمة مولدة لا يشهد لها قياس ولا اشتقاق في اللغة العربية .

وقال ابن خلدون في (المقدمة): « إن قيل بالاشتقاق فإنها مشتقة من الصوف لأنهم في الغالب مختصون به » .

التصوف في الاصطلاح: هو تلك التجربة الروحانية الوجدانية التي يعيشها السالك المسافر إلى ملكوت الحضرة الإلهية و الذات الربانية من أجل اللقاء بها وصالا وعشقا، ويمكن تعريفه كذلك بأنه تحلية وتخليّة

وتجل، ويمكن القول أيضا بأن التصوف هو محبة الله والفناء فيه والاتحاد به كشفا وتجليا من أجل الانتشاء بالأنوار الربانية والتمتع بالحضرة القدسية .

هو مذهب إسلامي، وهو منهج أو طريق يسلكه العبد للوصول إلى الله، أي الوصول إلى معرفته والعلم به ، وذلك عن طريق الاجتهاد في العبادات واجتناب المنهيات، وتربية النفس وتطهير القلب من الأخلاق السيئة، وتحليته بالأخلاق الحسنة. وهذا المنهج يقولون أنه يستمد أصوله وفروعه من القرآن والسنة النبوية واجتهاد العلماء فيما لم يرد فيه نص، فهو علم كعلم الفقه له مذاهبه ومدارسه ومجتهدوه وأئمة الذين شيّدوا أركانه وقواعده - كغيره من العلوم - جيلاً بعد جيل حتى جعلوه علماً سموه علم التصوف، وعلم التزكية، وعلم الأخلاق، فألّفوا فيه الكتب الكثيرة بينوا فيها أصوله وفروعه وقواعده.

قول زكريا الأنصاري: التصوف علم تعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية .

قول الشيخ أحمد زروق: التصوف علم قصد لإصلاح القلوب وإفرادها لله تعالى عما سواه. والفقه لإصلاح العمل وحفظ النظام وظهور الحكمة بالأحكام. والأصول "علم التوحيد" لتحقيق المقدمات بالبراهين وتحلية الإيمان بالإيقان .

أ- تعريف التصوف لدى المتصوفة أنفسهم:

وقد اختلفوا اختلافاً كثيراً في تعريفه، كما اختلفوا في أصله واشتقاقه، بل اختلفوا هنا في تعريفه اختلافاً كثيراً حتى تناقضت وتعارضت تعريفاتهم فمن المتصوفة الذين أوردوا تعريفات عدة للتصوف:

- 1- معروف الكرخي وقد عرفه بما يلي: (التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق .
- 2- الجنيد، وقد عرفه بما يلي فقال: (التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة) وقد عرفه أيضاً بما يلي فقال: (التصوف تصفية القلب عن موافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية وإخماد الصفات البشرية ومجانبة الدواعي النفسانية ومنازلة الصفات الربانية والتعلق بعلوم الحقيقة واتباع الرسول في الشريعة وقد عرّف سحنون التصوف بما يلي حين سئل عنه فقال: (التصوف هو أن لا تملك شيئاً ولا يملك شيء).

إذا نظرنا في التعريفات السابقة نرى أن أئمة التصوف قد عرفوا التصوف بتعريفات مختلفة، فمثلاً معروف الكرخي قد عرفه بأن معنى التصوف هو الأخذ بالحقائق، كلمة الحقائق تحتل عدة وجوه ولا ندري ماذا يقصد بها ولعله في الغالب يقصد بها العلم الصوفي الذي يقولون عنه علم الحقيقة. وأما الجنيد فقد عرفه بتعريفين، ففي التعريف الأول عرفه بأن معنى التصوف هو أن يكون الإنسان مع الله بلا علاقة، ولعله يقصد بأن على الإنسان أن يقطع جميع علاقاته مع بني جنسه وهذه دعوة باطلة فإننا لسنا مأمورين بالهروب عن البشر عنهم في الأربطة والخوانق، والزوايا الصغيرة كما يفعل المتصوفة إلى يومنا هذا.

وأما في التعريف الثاني فقد عرفه بأنه تصفية القلب عن موافقة الخليقة والابتعاد عن الأخلاق الطبيعية التي فُطر الإنسان عليها والسعي إلى التخلص من الصفات البشرية وعدم إعطاء النفس حقها مما تطلبه وأن يكون متعلقاً بعلوم الحقيقة ويتبع الرسول في الشريعة.

وهذه كلها مخالفة لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من عند الله لأن الإنسان بشر وسيظل بشراً هكذا، مهما عبد الله سبحانه وتعالى.

وسحنون قد عرّف التصوف بأنه التجرد عن كل الأملاك والتحرر من أي أحد أن يملكك. وفي الحقيقة فالصوفية في هذه التعريفات تعرب لنا عن معتقدات الصوفية التي يعتقدونها في قلوبهم ولم يقولوها هكذا جزافاً.

ب - تعريف التصوف لدى غير المتصوفة من المسلمين:

لقد عرف الدكتور إبراهيم هلال التصوف بما يلي فقال: (رغم كثرة التعريفات التي عرف بها التصوف الإسلامي في كتب التصوف وغيرها فإننا نستطيع أن نقول أن التصوف كما يراه الصوفية في عمومها هو السير في طريق الزهد، والتجرد عن زينة الحياة وشكلياتها وأخذ النفس بأسلوب من النقشف وأنواع من العبادة والأوراد والجوع والسهر في صلاة أو تلاوة ورد.

حتى يضعف في الإنسان الجانب الجسدي ويقوى فيه الجانب النفسي أو الروحي فهو إخضاع الجسد للنفس بهذا الطريق المتقدم سعياً إلى تحقيق الكمال النفسي كما يقولون وإلى معرفة الذات الإلهية وكمالاتها وهو ما يعبرون عنه بمعرفة الحقيقة .

والإسلام يدعو حقيقة إلى تربية الإنسان تربية إسلامية صحيحة حتى يكون مستقيماً في حياته ويخضع لأوامر الله ورسوله عن قناعة كاملة.

ولكن الإسلام لا يسلك في تربية الإنسان الطريق الذي سلكه المتصوفة في تربية الإنسان وإنما يسلك في التربية إلى تقوية الإيمان بالله وباليوم الآخر وجميع ما يجب الإيمان به والعمل بالشريعة في حدود استطاعة الإنسان بالإتيان بالواجبات والإقلاع عن المحرمات والابتعاد عنها كلية، ولذا أقول إن سلوك المتصوفة في تربية الإنسان سلوك منحرف بعيد كل البعد عن المنهج الذي جاء به الإسلام وأمرنا أن نسلكه، ذلك لأن السلوك الذي يسير عليه المتصوفة في التربية يحطم معنويات الإنسان ويسعى دائماً أن يفصل الإنسان عن هذه الحياة نهائياً حتى يصبح عضواً ميتاً لا قيمة له في هذه الحياة، وهذا سلوك يختلف تماماً عن السلوك الذي دعا إليه الإسلام ذلك لأن الإسلام دين شامل كامل يدعو الإنسان لكي يقوم بوظائفه في هذه الحياة على أكمل وجه وأتمه.

فالإسلام أباح للإنسان أن يأكل من الطيبات كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) .

وقال تعالى: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَطَيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) .

ولو تتبعنا وبحثنا في المصادر التاريخية فنسجد أن هذه التربية الصوفية أخذت من فلسفات أجنبية كالهندوكية والبوذية أو الديانات المحرّفة كالمسيحية واليهودية أو أنها أخذت من البيئة الإسلامية عن طريق الطوائف الضالة كالشيعة والباطنية.

فالمتصوفة قد أدخلوا في الإسلام ما ليس منه في جميع جوانبه سواء كان في جانب العبادة أو كان في جانب العقائد والأخلاق حتى أصبحت معرفة الصوفية في عمومها معرفة فلسفية أو إشراقية لا معرفة دينية ترجع إلى محض التمسك بالكتاب والسنة.

فالإشراق الفلسفي الذي عرف من قبل عند سقراط وأفلاطون وغيرهم من فلاسفة اليونان والهند والفرس، والذي يصل فيه المرء بعد مرحلة التجرد والرياضة والعبادة إلى مرحلة الكشف والإخبار عن المغيبات هو غاية التصوف الإسلامي في منهجه الفلسفي .

وقد عرفه الشيخ محمد فخر شقفة بقوله: (التصوف طريقة زهدية في التربية النفسية يعتمد على جملة من العقائد الغيبية (الميتافيزيكية) مما لم يقيم على صحتها دليل لا في الشرع ولا في العقل). وقد شرح هذا التعريف فقال: (وقولنا: يعتمد على جملة من العقائد (الميتافيزيكية) مما لم يقيم على صحتها دليل في الشرع ولا في العقل).

يعني تلك العقائد التي تبحث فيما وراء الطبيعة والتي يدعون بأنهم تعلموها عن طريق الكشف أو وردت إليهم عن طريق الخواطر أو الرؤى المنامية كعقيدة البعض في الحلول ووحدة الوجود والحقيقة المحمدية واعتبارها أصلاً لكل حياة بشرية وكونية، وعقيدة البعض الآخر عن النواميس الطبيعية مما لم يخبر بذلك قرآن ولا سنة ولا يقوم على أساس علمي ولا يتفق مع المقاييس العقلية) .

لم يظهر مذهب التصوف في صورته الكاملة (pantheism) في التصوف الإسلامي إلا بمجيء الصوفي الأندلسي المتفلسف محيي الدين بن عربي المتوفى سنة 628هـ.

وقد كانت لهذا المذهب في الأندلس مميزات سبقت ظهوره، وقد عني المستشرق الإسباني أسين بلاثيوس بتتبع المدارس الصوفية الفلسفية السابقة على ابن عربي والتي كانت تتحو نحو وحدة الوجود في الأندلس، وذلك في بحثه المعنون (ابن مسرة ومدرسته). وقد تناول بلاثيوس في بحثه هذا الفكر الإسلامي في المشرق ثم في المغرب في القرون الثلاثة الأولى من الإسلام، وتحدث فيه بعد ذلك عن حياة ابن مسرة (269-381هـ) ونظريته الأنباذ وقلية المنحولة ((Pseudo-Empedocles) ، وعن آراءه المختلفة في النفس والعقل والصدر، وعن آرائه الأخرى الميتافيزيقية والكلامية، ثم يَعْقبُ ذلك دراسة مدرسته، وأثر أفكاره في المتأخرين من مفكري الأندلس، وعلى الأخص ابن عربي.

والواقع أن تعاليم ابن مسرة أثرت في جميع الصوفية الأندلسيين الذين مزجوا التصوف بالفلسفة. وقد ظهر لابن مسرة في إسبانيا تلاميذ كثيرون اعتقدوا آراءه على مر العصور. كان لمدرسته أتباع في القرن الرابع في عصر ابن حزم، منهم إسماعيل الرعيني. ويبدو أن أثر هذه المدرسة قد امتد إلى ألمرية (Almeria) وفعلاً فعله في صوفيته في القرن الخامس الهجري على نحو ما يشير إليه بلاثيوس،

وأصبحت ألمرية مركزًا هامًا من مراكز الصوفية القائلين بوحدة الوجود بتأثير من آراء ابن مسرة، فظهر فيها محمد بن عيسى الألبيري الصوفي، وأبو العباس ابن العريف صاحب كتاب (محاسن المجالس)، والذي أنشأ طريقة جديدة متأثرة بالنزعة التيزوفية التي نجدها عند مدرسة ابن مسرة. وكان له تلاميذ كثيرون نشروا طريقته في بلاد أخرى من الأندلس، منهم أبو بكر الميورقي، وابن برجان في إشبيلية، وهو أستاذ ابن عربي، وابن قسي في نواحي الجوف، وابن قسي هذا هو الذي قاد المريدين في ثورتهم على المرابطين .

ومن صوفية الأندلس ذوي الاتجاه الفلسفي -أيضًا- أبو عبد الله الشاذلي، ومن تلاميذه أبو إسحاق بن دهاق المتوفى سنة 611هـ، وابن أحلى، وقد انتسب الصوفي الأندلسي المتفلسف عبد الحق بن سبعين المتوفى سنة 669هـ، والمعاصر لابن عربي إلى ابن دهاق. وتعتبر المدرسة الشاذلية -أيضًا- التي يقول أصحابها بالوحدة الوجودية امتدادًا لمدرسة ابن مسرة.

وقد انتقل تصوف وحدة الوجود من الأندلس والمغرب إلى المشرق على يد ابن عربي، وابن سبعين اللذين استقر بهما المطاف في المشرق حيث نشرا تعاليم هذا النوع من التصوف.

وتصوف وحدة الوجود هو التصوف المبني على القول بأن ثمة وجودًا واحدًا فقط هو وجود الله، أما التكثر المشاهد في العالم فهو وَهْمٌ على التحقيق تحكم به العقول القاصرة. فالوجود إحدًا واحد، لا كثرة فيه . على أن من أصحاب وحدة الوجود كابن عربي من يفسح المجال للقول بوجود الممكنات أو المخلوقات على نحو ما، ومنهم من يطلق القول بالوحدة، ويمعن في ذلك إلى الحد الذي يجعله لا يثبت إلا وجود الله فقط. وهؤلاء هم أصحاب الوحدة المطلقة، وعلى رأسهم ابن سبعين.